تَرْجَمَةُ ابْنِ القَيِّم

هو الإمام المحقق الحافظ شمس الدين، أو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي، المعروف بـ(ابن قيم الجوزية) نسبة إلى المدرسة التي أنشأها يوسف بن عبد الرحمن الجوزي، حيث كان أبوه قيماً عليها، واشتهر باسم (قيم الجوزية).

ولد سنة ٦٩١هـ في قرية (إزرع) من قرى حوران، ثم انتقل إلى دمشق وتتلمذ لعلمائها.

ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية ملازمة تامة بعد عودته من مصر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ إلى أن توفي الشيخ سنة ٧٢٨هـ.

وقد أتيح بهذه الملازمة استماع آراء الشيخ واجتهاداته، ولم يقتصر على إفادة العلم من شيخه، بل استفاد أيضاً تعلم طريقته في الاستدلال والمناقشة، وقد تأثر بأسلوبه في الكتابة وتحرير المسائل.

وأهم ما استفاد منه: دعوته إلى الاعتصام بكتاب الله عزَّ وجلّ، والسنّة الصحيحة، وفهمها على طريقة السلف الصالح.

وقد أصابه ما أصاب شيخه من أذى، فقد اعتقل معه في قلعة دمشق، ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة الشيخ رحمه الله.

وقد استمر على محبة شيخه بعد وفاته، وتابع منهجه في سيرته وعلمه.

وقد كان ـ رحمه الله ـ صاحب عبادة وتهجد وطول صلاة، حتى قال ابن كثير في حقه: «لا أعرف في هذا العالم، في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه

كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك، رحمه الله تعالى».

وقد ذكر مترجموه من أمور عبادته وزهده وصدق لهجته الشيء الكثير.

أما مؤلفاته فكثيرة جداً، طبع منها أكثر من ثلاثين مؤلفاً.

توفي ـ رحمه الله ـ في شهر رجب سنة ٧٥١هـ وصُلي عليه بجامع دمشق الكبير.

ولاستكمال التصور عن شخصية ابن القيم، يحسن بنا أن نتوقف قليلاً، لنستمع إلى أقوال بعض العلماء فيه:

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني:

«كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف».

وقال العلامة ابن رجب الحنبلي:

«مارأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وهو ليس بمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله».

وقال القاضي برهان الدين الزرعي:

«ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه» والمراد في عصره.

وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير:

«كان ملازماً للاشتغال ليلاً نهاراً، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، لا يحسد ولا يحقد...».

وقد مر في ترجمته بعض شهادته.

وقال ابن العماد الحنبلي:

«هو المجتهد المطلق، المفسر، النحوي، الأصولي، المتكلم... تفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه، وفقهه ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، والعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وعالماً بعلم السلوك...»[1].

* * *

---

(1) كتبت هذه الترجمة لمقدمتي لكتاب (مواعظ الإمام ابن القيم)، وهي ترجمة مختصرة، ورأيت أن أثبتها في مقدمة إعداد هذا الكتاب.